الأمن هو حالة التوافق بين أفراد المجتمع وبين المجموعات البشرية في مساكنهم وشوارعهم وبيئاتهم المختلفة وهو من متطلبات التنمية التي تحافظ على البيئة حيث تنقلنا من حالة التخلف والجهل وتوابعه كالفقر والمرض إلى الحياة الكريمة حياة الأمل والرقي التي تسود فيها الطمأنينة والأمان.

أ. د. عبدالرحمن خوجلي المبارك*

الثقافة الأمنية ودورها في حل مشاكل المجتمع

والتنمية لا بد أن تكون متوازنة والا سادت عوامل تؤدي لتصارع أفراد المجتمع في شكل جرائم ومفاسد وحروب أهلية وضعف أمن يغري بالاعتداء علينا وتسخيرنا لمآربنا بعبارة أخرى ان التنمية المستدامة هي مفتاح الأمن والأمان في المجتمع ولا تتأتى إلاّ بالعلم والمعرفة والتقدم التقني في عالم اليوم ومن هذا المفهوم لا بد أن تنتشر في المجتمع ثقافة أمنية في المقام الأول لتحدث التنمية المنشودة.

والثقافة الأمنية تدخل في كل ما تملك من مورثات ومعتقدات وقيم ومعارف وبذا تشمل كل أنشطة المجتمع المدني ، والدارس المتفحص يجد علاقة قوية بين التعليم والأمن من الناحية الاجتماعية الإنسانية، إذ يدور كلاهما حول محور واحد هو الإنسان ومجتمعه ومستقبله.

فالإنسان في محيطه المباشر والمجتمع في علاقته بالمجتمعات الخارجية يحدث بينهما تفاعل مستمر وما لم يكن هذا التفاعل متوازناً فإن إخلالاً أمنياً قد ينتج على المستوى الفردي أو الجماعي. وكثيراً ما يستخدم الناس كلمة أمن على أساس أمن النظام الحاكم ولكن للكلمة علاقة بالوطن وسكانه وحياتهم ودعاء سيدنا إبراهيم لربه أن يجعل بلده آمناً لا ارتباط لها بنظام حكم معين ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات﴾.

فالأمن يعني الطمأنينة والبعد عن الخوف والطمأنينة هي الاستقرار والقدرة على مواجهة المفاجآت دون حدوث خلل في الأوضاع السائدة أي عدم الشعور بالخطر من نواحي مختلفة. لذا فإن أمن الدولة والمجتمع مفهومه واسع فهناك الأمن الاقتصادي والأمن الغذائي والأمن الاجتماعي والأمن الداخلي والأمن الخارجي فالأمن يشمل التنمية جوانبها الاجتماعية والاقتصادية والقدرة العسكرية لمواجهة التحديات والأخطار الخارجية من هذا يتضح لنا أن الأمن بأبعاده الخارجية والداخلية لا يتحقق إلاّ بتوفر العنصر البشري القادر على العمل والعطاء.

والعلم هو الذي يجعل هذا العنصر البشري ذو قدرة فائقة للاستفادة القصوى من هذه الأرض وما فيها من خيرات والعلم نور تهتدي به الأمة وقد حث رسولنا الكريم على طلب العلم حتى ولو في الصين، ونحن في كثير من دولنا العربية والإسلامية النامية نعاني من الجهل والفقر والمرض بدرجة تحول دون أمننا ذلك التطور الذي يؤهلنا للحياة الكريمة وقيادة العالم من حولنا إلى ما هو أفضل.

إن أول آية نزلت في القرآن على رسولنا الكريم ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ تأمرنا بالقراءة التي هي أول وسيلة لطلب العلم وقال تعالى ﴿فاعلم انه لا إله إلاّ الله﴾. ولن نعرف أنفسنا ما لم نعرف خالقنا والذي أمرنا اعتناق هذه العقيدة التي لا يمكن بدونها أن يستتب الأمن والأمان في هذه الأرض كما بين لنا فضل المتعلم على غير المتعلم ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ إذاً فالإنسان المتعلم هو الأقدر على تحقيق الأمن والعيش في ظله والمحافظة عليه.

إن ارتفاع نسبة الأمية والجهل في كثير من الدول العربية والإسلامية يؤدي إلى قيام نظم سياسية معتمدة بدرجة كبيرة على الولاء القبلي والطائفي وتعتمد المقدرة على التحكم في زمام الأمور على التوازنات بينهما،

ويلعب انتشار التعليم دوراً هاماً في الحد من أي صراعات قبلية أو طائفية بدرجة كبيرة، الجاهلون يميلون إلى تمجيد القبيلة أو الطائفة والتعصب لهما لأنه ليس لمثل هؤلاء الأشخاص ما يتنافسون به مع الآخرين ولا يشعر الإنسان بأمان ما لم ينمّ الشعور بالانتماء القبلي، فالعلم والدين هما صمام الأمن والأمان من النعرات القبلية التي تقود دائماً وأبداً إلى التناحر بين القبائل المتجاورة لأتفه الأسباب، فانعدام الدين والجهل دائماً يقودان إلى الأنانية المدمرة والتي تدفع بالاعتداء على القبائل والكيانات الأضعف فينعدم التعايش السلمي بين البشر وتنتشر بينهم الكراهية والقتل والنهب فإذا قارنا بين الذين حباهم الله بالعلم وبين الأميين نجد نسبة ضئيلة جداً من المتعلمين يتفاخرون بأنسابهم وقبائلهم لأن التعلم يسمو بهم عن ذلك ويكون همهم دائماً التنافس في طلب العلم والمعرفة والإنتاج العلمي والأدبي والدراسة والبحث وكيفية الوصول إلى حلول المشاكل التي تواجههم، أما الجاهلون الأميون فإن صلتهم بالحضارة مقطوعة ما عدا في المظهر، فالجهل مشكلة حقيقية فعلاً فهو يوقف حركة التنمية والتقدم فإذا نظرنا للأقطار الأفريقية مثلاً نجد أغلبها يعيش في ظلال دامس وجهل وأمية وفقر ومرض مما يجعل النسبة عالية من حيث تفشي الصراعات القبلية والحمية والعصبية بدرجة أدت إلى قيام حروب أهلية متتالية والغريب أن هذه النعرات ظهرت حديثاً في أوربا بين الصرب والكروات والألبان.. ولهذا الظهور أسباب تاريخية.

هذه الحروب الأهلية التي قامت على أسس عرقية وغذتها أيادي أجنبية أدت إلى هلاك مئات الألوف والملايين وهذا لا يخدم القارة وإنسانها في شيء ولكنه في صالح الذين يطمعون في استثمار ثرواتها لصالحهم.

وكنتيجة للضائقة الاقتصادية التي تعاني منها معظم الدول الأفريقية بسبب تراكم الديون وتدمير البنية التحتية بسبب النزاعات المسلحة زاد النشاط القبلي مرة أخرى، أصبحت هذه الشعوب تدور في حلقة مفرغة مما ساعد على عدم تطورها ومواكبتها للحضارة واستقرار شعوبها وتذوقهم للحياة الكريمة والمجتمع الآمن.

وللتخلص من هذه النعرات القبلية علينا بالعلم الديني والدنيوي وإنشاء المدارس التعليمية في المناطق النائية ذات النعرات القبلية من أهم الواجبات التي لا بد منها لتنوير الأطفال الصغار بأهمية العلم وغرس حب الوطن فيهم.

وعليه.. فلنبدأ بالأطفال أولاً ونرعى حقوقهم في الحياة والتعليم والنشأة وهذه من بديهيات استتباب الأمن، فالأطفال في الأقطار التي لا تتهيأ فيه فرص الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي عرضة لاغتصاب حقوقهم وبالتالي ينشأون في بيئة غير صالحة لنموهم فيصبحون فيما بعد مصدراً لعدم الاستقرار واختلال الأمن.

وتكثر هذه الظاهرة في بلدان نامية حيث يستغل الأطفال أبشع الاستغلال ويتعرضون لظروف صعبة لا يتاح لهم التعليم أو الحياة الأسرية الكريمة على سبيل المثال فإن في الأقطار الأفريقية المسلمة من السنغال غرباً وحتى الصومال شرقاً يوجد وضع حرج للأطفال وأبسط حقوقهم في الحياة والنماء والتعليم معدومة بسبب الحروب الأهلية والصراعات الدائرة هناك.

ورغم أن المجتمع الدولي أوصى بضرورة الحماية والرعاية للأطفال في ميثاق الأمم المتحدة وفي المنظمات الخاصة بحقوق الأطفال كاليونيسيف إلاّ أن الوضع مازال سيئاً للغاية وينبىء بمستقبل مظلم لهؤلاء الأطفال وبحالة اضطراب أمين للمجتمع جراء ذلك وقد توسع استغلال الأطفال فشمل بجانب حرمانهم من فرص التعليم وتجنيدهم في الميليشيات واختطافهم للمساومات شمل استغلالهم في بعض المشاريع الصناعية والزراعية بأجور بخسة وتحت ظروف قاسية خاصة في الدول الفقيرة وكذلك في شبكات الإجرام كترويج المخدرات وأعمال الدعارة.

وهذه نجدها حتى في بعض الدول المتقدمة ماذا يتوقع من هولاء الأطفال أولاً لن تكون لديهم مهارات للعمل فينضمون إلى صفوف العطالة ويحقدون على مجتمعهم وينخرطون في الإجرام بكل أشكاله ويكونون بذلك أكبر مهدد للأمن في المجتمع.

لذا وجب علينا الحرص على استقرار أطفالنا وتنمية مواهبهم وفتح المدارس في كل المناطق لينالوا حظهم من التعليمو ويكونوا مواطنين صالحين غير حاقدين على المجتمع.

أما المرحلة الطلابية الجامعية فهي من أهم المراحل في حياة الشباب إذ يبني الطالب شخصيته وكينونته المميزة في هذا العمر يكون أكثر حماساً إلى المبادئ والقيم والأفكار والمثل العليا التي ينجرف نحوها طبيعياً وتقوده للبحث عن التعاليم الدينية القيمة وللتمسك بها ولا يحدث الانحراف عنها إلاّ لشرذمة قليلة.

والشباب طاقة جبارة لا بد من توجيهها توجيهاً صحيحاً وخاصة في النواحي الأمنية التي تسهم في بناء الوطن العربي عامة فتصبح المنطقة آمنة اجتماعياً واقتصادياً وعسكرياً.

ولدينا تجربة الشباب في السودان حيث المعسكرات الطلابية الأمنية التي يتم فيها توعية الشباب وتدريبهم على الأساليب العسكرية والأمنية وتربيتهم الجسدية والفكرية سواء من قبل الجامعة أو بعدها، فهولاء الطلاب يواصلون تعليمهم وهم على وعي وإدراك كاملين بالنواحي الأمنية زيادة

على النواحي العلمية التي يتلقونها خلال التعليم الجامعي.

وعليه فمن البديهي أننا في حاجة ماسة لخلق الإنسان المتعلم القادر على تحقيق أهداف الأمن القومي المنوط به وبذا نصل لمرحلة الاستقرار فيسهل العمل على تسخير المصادر الطبيعية المختلفة من أجل التنمية المستديمة لخدمة المجتمع ويتاتى هذا بالمعرفة المتخصصة والمهارات العليا والتدريب المتقدم وهذا ما يجعل التعليم الجامعي هو نهاية السلم التعليمي من ضرورات الحياة لتحقيق الأمن الوطني كما لا بد أن نشير إلى أننا في حاجة للمزيد من الخريجين الجامعيين وللمزيد من التخصصات المختلفة خاصة فيما يتعلق بمناهج التقانة والتعمق فيها وإجادتها.

إن التعليم الجامعي يصاحبه نشاط بحثي مكثف لإيجاد حلول للمشكلات الأمنية المتنوعة وهذا يشجع الخريجين ويجعل لديهم الرغبة في إيجاد حلول للمشاكل التي تواجه المجتمع بما تعلموه من علم وتقانات عصرية حديثة ومعارف إنسانية تتعين على فهم طبيعة النفس البشرية التواقة للأمن والاستقرار. وأن الذي نصبو إليه لا يتحقق إلاّ بزيادة خريجين جامعيين ذوي كفاءة تمكنهم من وضع مستقبل أمني علمي يلائم المنطقة وذلك بإتاحة الفرص الكافية للتعليم العالي الجامعي لأكبر عدد ممكن من الشباب بحيث نجد من بينهم مبرزين في مجالات التقنية والبحث العلمي بدرجة تكفي الحاجة القومية وفي نفس الوقت نكون حققنا العدالة الاجتماعية وتصبح العملية التعليمية خاضعة لخدمة المجتمع في جميع أوجهه وعلى رأسها الأمن الذي بدونه لا تستقر الأحوال وبالتالي تنعدم التنمية وتسود عوامل تؤدي إلى صراعات بين الأفراد والتجماعات المختلفة.

وهناك آراء تعارض سياسة زيادة عدد الطلاب الدارسين في الجامعات بحجة الاختناق الوظيفي أي ان الوظائف خاصة الحكومية لا تتناسب مع الكم الهائل من الخريجين وبالتالي تخلق مشكلة العطالة، ولكن نقول لهؤلاء أن التعليم الجامعي يجب أن يكون حقاً مشاعاً للجميع وليس حكراً للصفوة فقط ولا بد أن نشير هنا إلى أن هؤلاء الصفوة نتاج لامتحانات نهائية.

وربما يكون من الذين لم ينضموا لهؤلاء نوابغ حالة ظروفهم أثناء الامتحان من عدم حصولهم على درجات عالية تؤهلهم لدخول الجامعات المحدودة فبزيادة اعداد الطلاب الجامعيين تظهر المواهب والملكات الكامنة التي تفيد المجتمع.

إن التركيز على أمن منطقتنا العربية شيء في غاية الأهمية لأنه يوجد في وسط المنطقة عدو يمتلك كل أنواع الأسلحة الفتاكة والجرثومية والكيميائية والنووية بجانب الأسلحة التقليدية المتطورة، وهذا يحتم علينا أن نتسلح بالعلم لنحقق ما نصبو إليه لأن أهم أسلحة اليوم هي نتاج العلم والتقنية المتطورة.

ويقودنا هذا إلى الإعداد المبكر لأبنائنا منذ مرحلة الأساس مروراً بالثانوي ثم الجامعة فنغرس فيهم أهمية الأمن الخارجي والداخلي للمنطقة بالإقبال على علوم التقانة ونشجعهم على الاكتشاف والابتكار عن طريق البحث العلمي. فالتعليم هو الأصل والأمل في أمن الوطن ولا يتسنى ذلك إلاّ بتعليم المواطن التعليم المناسب للعصر ومتطلباته تحت شعار العلم من أجل القوة والحياة الكريمة فلمن هو الأمن؟ إنه للوطن والذي يحققه ويمارسه ويعيش في ظله هو المواطن وتتأثر به الأجيال الحاضرة والقادمة.

إن نوعية العنصر البشري القادرة على العمل لا بد ان تظل مميزة بالعلم لتحقيق هذا الواجب المقدس وهو الأمن الذي هو صمام الأمان لوجودنا في هذا الكوكب. ولا بد أن ننوه هنا إلى أن التعليم ليس شيئاً جامداً بل قابل للتعديل والتغير وفقاً لاحتياجات المجتمع ومن ثم لا بد من مراجعة سياسة التعليم بين فترة وأخرى، فقد أصبح التعليم العالي ضرورة وما يجب أن نركز عليه هو استثمار الشباب بزجه في ميادين العلم وذلك عن طريق التوسع في الجامعات والمعاهد العليا لأنها توسع إدراكهم ومهاراتهم وتزيد من ثقتهم بأنفسهم فيجدون أنفسهم ملزمين بطلب العلم أمام التغيرات التقنية المتجددة من حين لآخر، ونحن الآن نعيش في عالم الإنترنت حيث تلعب المعلومات دوراً واضحاً في صنع القرارات سواء كانت خارجية أو داخلية، لذا لا بد من توفر مواطنين قادرين على تحقيق ما تحتاجه الدولة بحيث تمتلك إرادتها الوطنية وتشكل قراراتها حسب متطلباتها ومصالحها العليا وذلك عن طريق خبراء أكفاء متخصصين. فالتعليم العالي المتطور هو درع واق وضرورة لتحقيق الأمن حاضراً ومستقبلاً.

ولا بد أن نوضح أن العمل على زيادة الجامعات أو عدد الخريجين الآن يأتي أكله أو ثماره في الأجيال القادمة الواعية والتي سوف تستفيد من مفهوم الأمن. ولذا نرى أن مؤسسات التعليم كافة رسمية أو غير رسمية يجب أن تشمل منهجها تقوية قيم العدالة والتسامح والتقوى بحيث تكون من السمات المميزة للأفراد والمجتمع ككل فيصبح الأمن والسلام وحكم القانون والعدالة من بديهيات الحياة الكريمة التي يتمناها كل فرد، كما يجب أن تشمل هذه المناهج تقوية الروابط الأسرية وتغذي الشعور العام للفرد بالانتماء للوطن وحبه وحب الأوطان من الإيمان كما قال رسولنا الكريم ﷺ.

---

* عميد البحث العلمي - جامعة جوبا- جمهورية السودان